هاجس الموت و الخلود عند أبي العلاء المعري

((سقط الزند انموذجا))

ياسر علي عبد

كلية الآداب-جامعة القادسية

التمهيد

الموت حقيقية أدركها الإنسانُ منذ بداياته الأولى، وظّلت مُخَيِّمَة على فكره وتفكيره، الى يومنا هذا، تفزعه ليلاً، وتقلقه نهاراً. ولم يقف - وهو المحُب لهذه الحياة - أزاء هذا الشَبح مكتوف الأيدي،بل فكّر طويلاً في محاولة للخلاص منه، وايجاد البدائل التي تضمن بقاءه في هذه الدنيا المُتمسّك بحبالها. ولربما لم يكن تمسكه هذا حباً للحياة فقط بقدر ماهو جهل لحقيقة ما بعد الموت.

وكان سكان وادي الرافدين من أقدم الأقوام الذين شغلهم هاجس الخلود. ودليلنا على ذلك،هو أنّ ملحمة جلجامش -وهي الأقدم من بين الملاحم العالمية – كان موضوعها الخلود.

فقد اعتقد العراقيون القدماء بأن الموت حتم على البشر، والخلود من نصيب الآلهة.[١]

وقد ادركوا هذه الحقيقة - التي لا يمكن لاحد التخلص منها حتى جلجامش الذي ثلثاه من الآلهة، وثلثه الآخر من البشر. لذا فانّه يسعى جاهداً للحصول على الخلود، بعد أن رأى المصير المأساوي لخلّه، وصديقه انكيدو، فهو يجتاز الصعاب من أجل الحصول على نبت الخلود من جدّه الخالد نيشتم. ولكن سرعان مانتلاشى أحلامه، حينما يصبح ذلك النبت من نصيب الأفعى، التي بأكلها له أعطت درساً لجلجامش بأنّ لاخلود للبشر، وإنّما الخلود للعمل الصالح[٢].

وبذلك يمكننا القول إنّ إنسان وادي الرافدين، أمن بحتمية الموت على البشر، ولكنّه لم ييأس من الخلود ولكن ليس الخلود المادي الذي كان يبحث عنه، وانمّا استنبط معنى آخر للخلود ألا وهو بقاء الذكر الحسن للانسان بعد موته. ولم يكن سكان العراق القديم، وحدهم الذين شغلوا بفكرة الموت وما بعدها، فقد شُغِلَ بذلك المصريون القدماء ((فالاهرامات مدافن احتوت كل ما أريد به تكريم الموتى، وتخليد ذكراهم، بشتى أشكال المظاهر الحضارية والفنية التي توصّلوا اليها))[٣] وهذا يعني تطلّع المصريين الى نوع آخر من الحياة بعد الموت، وزاد يقينهم بذلك حينما وجدوا جثث اجدادهم بحالة الحفظ التامة، حينما يقوموا بحفر قبر جديد[٤].

ولربما كان الهنود القدماء أسبق من المصريين في الاعتقاد بوجود حياة بعد الموت، يدلنا على ذلك طرقيم في الدفن، اذ كانوا يدفنون زوجات الرجل وعبيده معه لكي يقوموا على خدمته، وقضاء حاجاته، والسهر عليه بعد موته[٥].

---

(١) ينظر عقائد ما بعد الموت : ٧٩.

(٢) ينظر ملحمة جلجامش :١٢٦ وما بعدها.

(٣) هاجس الخلود والموت في الشعر العربي حتى نهاية العصر الاموي : ٢٠.

(٤) ينظر الخلود في التراث المصري :٦٠.

(٥) ينظر قصة الحضارة :٢/ ٧٠ ــ٧١.

ولسنا نشك في أنّ العرب قبل الاسلام، قد استقوا مفاهيم الموت من جوهر الديانات السماوية السابقة كالابراهيمية، والمسيحية وغيرها [١]. ومع ذلك فقد ظلت ((عقيدة العالم الآخر لم تستطع أن تنتشر في عرب الجزيرة، اذ بقيت فكرة البعث فكرة غريبة تُقابل باشد استنكار))[٢] الى مجيء الاسلام. اذ قال تعالى ((وقال الذين كفروا هل ندُلكم على رجلٍ ينبؤكم إذا مُزقتهم كلَّ ممزقٍ أنكم لفي خلقٍ جديد افترى على الله كذباً أم به جنّة))[٣]. وكذلك قوله تعالى ((و قالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر وما لهم بذلك من علم إنْ هم إلاّ يظنّون))[٤].

وهذا الكلام لا يمكن تعميمه، فمنهم مَنْ شغله حديث ما بعد الموت، أو موضوع الروح، فقد ((زعمت طائفة منهم أنّ النفس طائر ينبسط في جسم الانسان، فاذا مات أو قتل لم يزل مُطيفاً به في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً، من ذلك قول ابي دؤاد الأبادي :

سُلطَ الدهرُ والمنون عليهم فلهم في صدى المقابر هامُ [٥]

لأن هذا الطائر يسمونه الهام، والواحد هامة)) [٦].

وبعد بزوغ فجر الاسلام على ارجاء المعمورة، كان له أن يلغي جميع النظرات القديمة، فقد حلّ مشكلة الحياة والموت، عندما جابه البشرية بتلك الحقيقة التي تقرر أنّ الحياة الدنيا ما هي إلا سفر قصير يُمهّد به لحياة دائمة منقسمة على قسمين، أمّا نعيم دائم أو جحيم، اذ قال تعالى ((وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لهو ولعب وانّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون))[٧].

فقد أشار القرآن الكريم الى أنّ الفناء مكتوب على جميع الكائنات، فقال ((كلُّ مَنْ عليها فان))[٨]. وباقرار هذه الحقيقة جلى الاسلام عن هذه المسألة كلّ الغيوم التي كانت تُخيّم عليها، فقد أوضح أنّ الموت هو الخطوة الأخيرة من الحياة الدنيا، والخطوة الأولى من الحياة الآخرة، تلك الحياة الأبدية، التي سيتقرر فيها مصير الإنسان، فأمّا الى نعيم، وأمّا الى جحيم، وبذلك فقد نحى الخلود في الاسلام منحى آخر إذ أخذوا يبحثون عن الخلود السعيد في الحياة الآخرة، ولربما وجدوا هناك منافذ للخلود في الحياة الدنيا، كالقيم الفاضلة التي منها الكرم، والشجاعة، والمروءة، فضلاً عن القيم الاسلامية التي حثّ الاسلام عليها.

وفي ضوء ما تقدم سنبحث ذلك في سقط الزند لابي العلاء المعّري، ونتعّرف على الموت وأثره، ومعانيه، وسلبياته، وايجابياته، والخلود، ومنافذه، معتمدين بذلك على النص الشعري وتحليله.

---

(١) ينظر هاجس الخلود والموت في الشعر العربي حتى نهاية العصر الاموي : ٨٠.

(٢)هاجس الخلود والموت في الشعر العربي حتى نهاية العصر الاموي :٣٣.

(٣) سبأ :٧،٨.

(٤) الجاثية :٢٤.

(٥) ديوان ابي دؤاد الأبادي : ٣٩.

(٦) مروج الذهب : ٢/ ١٥٣.

(٧) العنكبوت : ٦٤.

(٨) الرحمن : ٢٦.

المبحث الأول

الموت وتحدياته وموقف الشاعر منه

١ ــ الموت مصيراً

ادركت الانسانية أنّ الموت كُتبَ عليها، وهو المصير لكلّ البشر، بمختلف مستوياتهم وادراكهم. لذا فأنّ هذا الهاجس المصيري لا يكاد يفارق الشعراء في جاهليتهم، واسلامهم على الرغم من اختلاف القسيم بين العصرين، ولا نغالي اذا قلنا أنّه مبثوث في اغلب اغراضهم الشعرية، والذي عادة يكون على شكل حكمة ضمن القصيدة الواحدة، أو منفرداً في قصائد معينة. هذه الحكمة التي استقاها الشاعر من تجربته الحياتية، او من تجارب اقرانه، التي يستفاد منها لتأنيب النفس احياناً اذا شَطّت عن الطريق السوي، أو قد تكون نصحاً وارشاداً للآخرين.

فقد وقف الشعراء–ازاء الموت– في طريق يتوافر فيه عاملان، الفكر، والقبول، ولربما اكتفوا بالجانب الأول منه بالاقرار بحتميته، وعدم جدوى محاولة التغلب عليه. (١)

والسؤال المطروح هو ماذا كان موقف الشاعر المسلم من الموت كمصير حتمي، بوصف أبي العلاء كان مسلماً، ولربما كان زاهداً في دنياه. وليس بين أيدينا سوى شعره الذي باستطاعتنا أن نستنطقه لنتبين حاله أمام هذه الحتمية. هل كان يئساً واستسلاماً، أم تحدياً ورفضاً فهو يقول.

فلسنا وإن كان البقاءُ مُحَبَّباً بأولَ منْ أخنى عليه حمامُ (٢)

وهنا أتى الشاعر بموازنة بين الحياتين، فالأولى محببٌ فيها البقاء، ولكن يعترف الشاعر بحتمية الموت ليكون طريقه الموصل إلى الدار الآخرة. وقد هوّن عليه أنه لم يكن الأول الذي عبر ذلك الطريق.

فعلى الرغم من كون الشاعر مسلماً قد أيقن بما أعده الله للمتقين في الحياة الأخرى، ولكنّه حبّبَ البقاء في هذه الدنيا اذ يقول (٣).

فالنفس تبغي الحياة جاهدةً وفي يمين المليك مقودها

وهنا تعميم لحب الحياة. أي أن النفس البشرية بطبيعتها محبّةٌ للحياة على الرغم من أنّها تجهل وقت الموت، بل بالغ الشاعر أكثر حين أشار الى تمسك الأنبياء والصالحين بالحياة على الرغم من تيقنهم بالنعيم الأخروي. بل أنّ الشاعر جعلهم ممنْ لايحب الموت أو يفر منه كقوله(٤).

وخوف الردى أوى الى الكهف أهلُه وكلّف نوحاً وابنه عمل السفن

وما استعذبته روح موسى وآدم وقد وعدوا من بعده جنتي عدن

فقد جعل قلوب الأنبياء ممتلئة بالكراهية للموت محبّةً للحياة على الرغم من اتصاف الأنبياء عليهم السلام ــ بالزهد والتقوى.

ولعلنا نستشعر الألم والحسرة حين نقرأ قصيدة الشاعر

غير مجدٍ في ملتي ــ ــ ــ ــ ــ التي أودعتها حزنه ولوعته

---

(١) ينظر هاجس الموت بين الاستسلام والتحدي في القصيدة العربية : ٨٢.

(٢) سقط الزند : ١٠٩.

(٣) سقط الزند : ١٣٥.

(٤) م. ن : ١٥.

على هذه الدنيا التي لا تستقر باهلها على حال، وكأنّها تسعى بهم الى حيث قدرهم اذ يقول[١].

وشبيه صوت النعي إذا اقيـ ـس بصوت البشير في كلّ نادِ

فالشاعر نظر الى حال الدنيا، وسرعة زوالها، وإن لا وثوق بأيامها، فاستوى عنده النعي بالميت، والبشارة بالمولود ــ اذ مصير المولود الى الفناء والموت، ومصير البشارة الى أن تنقلب نعياً، فالصوتان اذاً متشابهان. ويكرر الشاعر قوله بأزلية، وحتمية الفناء، وأنه لا مفرّ من ذلك كونه المصير الأخير للانسان فهو يقول [٢].

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عادِ

وفي هذا تنبأ بأندراس قبورنا مثلما اندرست قبور السابقين.

ويستمر الشاعر بهذا النفس الحزين، لما ستؤول اليه البشرية ولربما تتزاحم القبور، فيكون القبر مثوى لا كثر من واحد. ثم ينظر الشاعر الى هذه الدنيا نظرة الفيلسوف المتأمل، فلا يرى فيها الا التعب والشقاء، بل إنـه يعجب لمن يرغب أن يطيل الله في عمره فيها، فالزيادة في العمر تعني زيادة في التعب والشقاء. اذ يقول [٣].

تعبٌ كلّها الحياة فما أعـ ـجب إلاّ من راغبٍ في إزدياد.

ويستمر الشاعر في تصويره للفناء الذي لا يلحق إلا بالجسم فيقول [٤].

خُلِقَ الناسُ للبقاء فضلّت أُمةٌ يحسبونهم للنفادِ

فالنفس الانسانية الناطقة المطمئنة باقية بعد مقارنة الجسد، فأما معذّبة أو منعّمة. وهذا هو المذهب الحق الذي يؤكده الشاعر مراراً فيقول [٥].

إنمّا ينقلبون من دار اعما ل الى دار شقوة او رشادِ

فبالموت يُبدّل داره فينتقل من دار الإبتلاء بالأعمال والتكاليف الى دار السعادة، وهي الجنة، أو الى دار الشقاوة وهي النار. نخلص من هذا أنّ ابا العلاء كان ينظر الى الموت على أنّه مصير مُحتم لكلّ البشر لا مفرّ منه، على الرغم من حبّ الحياة والتمسك بها، ونظرته هذه نظرة المسلم الذي أيقن أنّ الموت ليس الفناء الأبدي، وإنّما هناك حياة اخرى تنتظر الانسان، فاما أن يكون سعيداً فيها، او شقياً.

٢- اثر العقيدة في تقرير المصير

الاسلام ثورة دينية واجتماعية وسياسية. لذا كان له الدور البارز في احداث تغيير لمعتقدات الانسان، وماكان يؤمن به من معتقدات بالية، لها الأثر الكبير في جعله متخبطاً لا يعرف الهدف الذي من اجله خُلق، فضلاً عن جهله لما بعد الموت، السبب الذي أدّى به الى اتخاذ أشياء معينة رمزاً لخلوده بعد يئسه من الخلود المادي.

فقد وضع الاسلام القوانين الحياتية، فضلاً عن رسمه صورة واضحة للحياة الأخروية، وعدّها دار القرار. بعد أن بيّن أن الدنيا اختبار على الإنسان اجتيازه ليصل إلى النعيم الأبدي [٦]. اذ قال تعالى ((كلُّ نفـس ذائقـة

---

(١) سقط الزند : ٧.

(٢) م.ن: ٧

(٣) م.ن: ٨.

(٤) م.ن : ٨.

(٥) م. ن ٨.

(٦) ينظر مشاهد القيامة في القرآن : ١١.

الموت))[١].فبعد أن أكد الاسلام حتمية الموت، صوّر ما أعدّه الله للذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة. اذ قال تعالى ((ولاتحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل احياء عند ربّهم يرزقون))[٢].من هذا المنطلق تغيرت نظرة الشعراء للموت، فبعد إن كانوا ينظرون اليه وفق الخيال الجاهلي، او وفق نظرات شخصية، لا يصلون من خلالها الى اليقين، اصبحوا متيقنين من الحياة الأخرة، لذا كانت نظراتهم الاسلامية للموت وفقاً لهذه القيم[٣].

وابو العلاء واحدٌ من هؤلاء الشعراء الذين آمنوا إيماناً مطلقاً بالحياة الاخرى في ضوء ما صوّرها الإسلام لذا كان جاهداً للحصول عليها. فكانت نظرة ابي العلاء للدنيا نظرة الفيلسوف الزاهد الذي كان في أحيان كثيرة يزدري هذه الدنيا طلباً للآخرة إذ يقول[٤].

فيا موت زُر إن الحياة ذميمةٌ ويا نفسُ جِدّي إنّ دهرك هازلُ

فهذه النظرة تنمُّ عن تعمق الشاعر في نظرته الإسلامية للفناء، بعد أنْ أيقن بقصر حبال الدنيا، وان لا محال من تقلّب الأمور، فضلاً عن تيقّن الشاعر بالحياة الاسعد بعد الموت.

ولربما كانت نظرة الشاعر اعمق حين تيقن أنّ طول الحياة يجلب الذل والهوان لصاحبه اذ يقول[٥].

وحب الفتى طول الحياة يذلّه وان كان فيه نخوة وعرامُ

فالشاعر لا يرغب في طول البقاء إذ ينتابه احساس في إن طول الحياة يهينه، وإن كان فيه ترفع، فإنّ مَنْ احبّ طول الحياة توقّى الحرب، وجانب قتال الأقران، إبقاءً على الحياة، وعاش مُغصباً على الذل.

وهذا النفس الشعري يُنبأ أنّ صاحبه قد خبرُ الدنيا وذمّ فعالها تحسباً لما بعدها، لذا فانه ركن الى الزهد إذ تمثل ذلك في شعره فهو يقول[٦]

تجربة الدنيا وافعالها حثّت اخا الزهد على زهده

أي أنّ امتحان الدنيا وافعالها، والعلم بأنها لاتبقى على احد،ولا يدوم البقاء فيها هو الدافع للزهد، وايثاره وقلة الرغبة فيها. أي أنما زهدَ الزاهدون فى الدنيا لتجربتهم إياها وعلمهم بزوالها، وسرعة انقضائها[٧].

وتستوي طبقات المجتمع عند الشاعر بمختلف مستوياتها والوانها، إذ أنهُ يرى أنّ الانسان واحد ولاخلاف فى ذلك، فضلاً عن كونه آلٍ الى مصير واحد. اذ يقول[٨].

لو عرف الانسان مقداره لم يفخر المولى على عبده

ولا جدوى من كثرة الأنصار، اذ المكثر في انصاره والمُقل سيلاقيان المصير نفسه. فقد قال[٩].

والواحد المفرد في حتفه كالحاشد المكثر في حشده

ويبيمن على الشاعر هذا الأزدراء للدنيا،والمصير الذي سيؤول اليه، بعد الموت اذ يقول[١٠]

---

(١) الأنبياء : ٣٥.

(٢) آل عمران : ١٦٩.

(٣) ينظر الكامل للمبرد : ٣/٩١٠.

(٤) سقط الزند : ١٩٥.

(٥) م.ن: ١٠٩.

(٦) م.ن : ٢٠.

(٧) ينظر : الإيمان والحياة : ٢٦٠.

(٨) سقط الزند : ٢٥.

(٩) م. ن : ٢٦٠.

أرى أمّ دفر أخت هجر ولا أرى لها ساليا ما غيبته الروامسُ
يهيم بها الانسان ثمّ تحلّه ذرى الأرض وصفاها زرود وراكسُ
يُربربُ مثل الغصن حتى إذا انتهى اتى عاضدٌ واستقبل الترب غارسُ

فالشاعر يرى أنّ الدنيا لاتصل احداً، مع وجود الرؤية المضادة التي مفادها أن لا احد يصبر عنها، حتّى انّ الخامل الذي يخبط بشيءٍ منها لايسلو منها ايضاً.

وعلى الرغم من عشق الانسان للدنيا فهي لا تواصله، بل تنزله جانباً من الأرض، أي تبتلعه، وتغيّر حاله، بعد أن يربّى الانسان فيها كما يربّى الغصن، حتى اذا اكتمل نماؤه، قطعه قاطع، وكأنّ الذي غرسه، هو الذي يقلعه. أي أنّ الدنيا توجد ثمّ تعدم.

من كل هذا نخلص الى أنّ العقيدة الاسلامية كان لها الأثر الكبير في توسيع أفق الشاعر في نظرته للموت، لا سيما، وأنها قد رسمت صورة واضحة لحياة مابعد الموت، لذا فأن الشاعر ذمّ الدنيا وزهد فيها طلباً للآخرة، وقد تمثل ذلك في شعره اذ يقول[٣].

مدّ الزمانُ واشوتني حوادثه حتّى مللتُ وذمّت نفسي العمرا
جنيت ذنباً وألهى خاطري وسنٌ عشرين طولاً فلمانبّه اعتذرا

وفي ذلك رؤية واضحة للحياة بعد تجربة بصير بها، فنفسه قد ذمت طول العمر الذي لم يجلب له سوى الهموم، ولربما الآثام، لذا فهو يعلن توبته عن أخطائه الماضية، وقد يكون ذلك تقديم منه لتشوقه لرؤية الله عزّ وجل كما جاء في الحديث الشريف ((منْ احبّ لقاء الله احبّ الله لقاءه))[٣] . إذ إن المؤمن لا يحب الحياة حبّ الحريص على متاعها الأدنى، حبّاً بخيفه من الموت، ويلصقه بتراب الأرض، بل احبها لانّه يقوم فيها بحق الله، واحبّ الموت لانّه يعجل به الى لقاء ربّه[٤].

المبحث الثاني

منافذ الخلود

الموت قدرٌ لا مردّ له، وقضاء لاخلاص منه، لذا وقف الشاعر العربي أمامه مبهوتاً، تنتابه الحيرة احياناً، ويعتريه الذهول في احيان اخرى. وأمام ما وصل اليه من يئس و استسلام اندفع للتفكير بايجاد البديل عن الخلود المادي. فتارة نراه واقعياً يتحدث عن الموت، وقد اهلك قبله أُمماً، وملوكاً، يريد من ذلك اقناع النفس بهذا الدين الذي لامفرّ منه كقول احدهم[٥].

اين الملوك وعيشهم فيما مضى وزمانهم فيه وماقد جمّعوا
ذهبوا ونحن على طريقة من مضى منهم فمفجوع به ومفجّعْ

---

(١) م.ن : ٣٢٠.

(٢) سقط الزند: ٢٥٤.

(٣) الفائق في غريب الحديث : ٣ / ٣٢٥

(٤) ينظر الايمان والحياة : ١٥١.

(٥) معجم الشعراء : ٣٤٥.

وهكذا يخرج من تاملاته لاحداث الماضين، والمعاصرين الى وجوب الاعتبار اذا كان يملك مقومات الانسان السوي فالعقل والايمان ينبأنه أن لاخلود الاّ لله سبحانه وتعالى امام الموت والفناء[١].

وتارة نراه عابثاً يُكثر الحديث عن ملذات الدنيا، والغرق في متاعها، مادام الانسان فانيا، والحياة قصيرة، وطلب الخلود اصبح مستحيلاً، لذا اكثروا من حديث الخمرة، والمجون وحاجات الدنيا التي تمنّوا خلودها معهم في القبر[٢]كقول احدهم[٣]

وادفنوني وادفنوا الراح معي واجعلوا الاقداح حول المقبرة
إنني أرجو من الله غداً بعد شرب الراح حسن المغفرة

ولكن بعضهم صفح عن المواجهة الواقعية، والعينية جانباً لعدم جدواهما، أو لأن المواجهة العينية لاتتلائم والقيم السامية للدين الاسلامي الحنيف[٤].لذا اخذوا يبحثون عن منافذ اخرى للخلود من هذه المنافذ الشعر.

١- الشعر

يحتل الشعر مكانة متميزة في قلب العربي، لذا كان موضع اهتمامهم ورعايتهم، فهو الوسيلة الاعلامية التي بامكانها أن ترفع من شأن صاحبها، وتحط منه كما يقول ابن رشيق ((فالشعر يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثلما يضع من قدر الشريف ..... وانّما هذا لمكان الشعر من قلوب العرب، وسرعة ولوجه في اذهانهم، وتعلّقه بانفسهم))[٥] لذا كان الناس يكرمون الشعراء، ويجزلون لهم العطاء لعلّهم يحضون بمدحهم، فيبقى ذكرهم خالداً على مرّ الأيّام، او يتجنبونهم كي يتخلّصوا من هجائهم الذي إن هجي به احد بقي عاراً ملازماً له على أمد الدهر، والأدب العربي حافل بالشواهد التي تبين ذلك، منها هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر اذ يقول[٦].

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فأنّك انت الطاعم الكاسي

فلقد هدم الحطيئة بهذا الهجاء شرف الزبرقان، وضعضع مجده واستعدى عليه.

وابو العلاء واحدٌ ممن ولجوا في نافذة الشعر تعلقاً بأسباب الخلود، كقوله[٧]:-

أرى المجد سيفاً والقريض نجاده ولولا نجاد السيف لمْ يتقلّدْ
وخيرُ حمّالات السيوف حمالة تحلت بأبكار الثناء المخلّدِ

فالشاعر يرى في المدح للمجد كالحمّالة للسيف، فمثلما لا يُتقلّد السيف الاّ بالحمّالة، كذلك لا تشيع آثار الكرام، ولاتخلد صحائف المجد إلاّ بالممادح، ولمّا جعل المجد سيفاً، والسيف لا بدّ له من الحمّالة، وجعل الشعر حمّالة للسيف، ذكر أنّ خير حمّالات السيوف حمّالة كانت حليتها الثناء البكر الذي يخلد، ويبقى ببقاء الدهر.

---

(١) ينظر الايمان والحياة : ٠٤.

(٢) ينظر دراسات نقدية في الشعر العربي د. محمد الحديثي : ٩٨، ٩٩.

(٣) الاغاني : ٢٠ /٢٩٤.

(٤) ينظر هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي : ٤٣.

(٥) العمدة : ١/ ٤٠ - ٤١.

(٦) ديوان الحطيئة : ٥٠.

(٧) سقط الزند : ٩٣.

وقد يتّخذ الشاعر من النجوم مشبّهاً به لشعره. فهو يغتصب تلك الكواكب لتكون لألىء لشعره. إن اختيار الشاعر لهذه النجوم عشوائياً، اذ انّه لمس فيها خلوداً كما كان يلمسه في الجبال والشمس، والقمر، لذا اراد لشعره الخلود كالخلود الذي تعيشه الكواكب، اذ من خلال هذا الخلود يخلد ذكره فهو يقول[١] :-

ولقد غَصبتُ اللّيل أحسن شهبه ونظمتها عقداً لأحسن لابسِ

واخذتها القدح المعلى فائضاً يجري ولم اقنع لها بالناحس

فشعره في علو المرتبة وحسن اللفظ كالنجوم، فالشاعر غصب الليل نجومه، ونظمها عقداً والبسها مَنْ هو اولى بلبسها، ثمَّ أنّ الشاعر قد بالغ في تنقيح هذه المدائح، وتهذيبها، ولم يرض لها بالسهم الأدنى نصيباً. وربما رأى الشاعر أنّ الذي أتى به من الشعر العجيب ــ وان سبقه كثير من الشعراء ــ لكنه تقدم عليهم وفاقهم اذ يقول[٢] :-

وإنّي وإن كنت الأخير زمانه لأت بما لم تستطعه الأوائل

نخلص من كل ما تقدم الى أن الشاعر رأى في الشعر تنفيساً لمكامن النفس، وهي تبحث عن خلود ابدي، ولو كان ذلك الخلود معنوياً. فوظفه لذلك مثلما وظّف قيماً كثيرة غيره إرضاءً لهاجسه النفسي، وتهويناً لوقع الموت عليه.

٢ - القيم الفاضلة منفذاً للخلود :

إنّ المجتمع العربي قبل الاسلام لم يكن مجتمعاً متفسخا إذا استثنينا مسائل الدين، اذ كانت تربطه قيم واخلاق كان عليها الاسلام حين مجيئه، لذا كان العربي متمسكاً بها ايما تمسك، منها الكرم، اذ قال تعالى ((يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيّبات ماكسبتم، ومما اخرجنا لكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه واعلموا انّ الله غنى حميد))[٣]. فقد احبّ العربي الكرم الى حدّ العشق، فضلاً عن كونه مطهراً مقدساً، وظاهرة حضارية، كان مصدر ثناء، وبقاء وخلود الذكر، إذا ماطوى صاحبه الموت[٤]. فالشاعر العربي تغنى بالكرم كما نرى ذلك في قول لبيد[٥]:

رأيت النّفى والحمد خير تجارة رباحاً اذا ما المرء اصبح ثاقلاً

وهل هو إلّاما ابتنى في حياته إذا اقذفوا فوق الضريح الجنادلا

وانّوا بتأبين كأن عنده وعضّ عليه العاتقات الأنامل

فالنفق المال في مصالح المجتمع من قيم الخير التي يعود على الفرد ثواباً في الآخرة وذكراً حسناً في الدنيا. ولو فتّشنا شعر ابي العلاء لوجدناه حافلاً بهذه القيمة الكريمة، متغنياً بها جاعلاً إيّاها باباً من ابواب الخلود الحسن. اذ يرى أن ادخار المال من شيم الضعفاء فيقول[٦]:

وهل يدخر الضرغام قوتاً ليومه إذا ادخر النّمل الطعام لعامه ؟

---

(١) ن.م : ١٩٢.

(٢) سقط الزند : ١٩٣.

(٣) البقرة : ٢٦٧.

(٤) ينظر هاجس الخلود في الشعر العربي : ١٨٠

(٥) ديوان لبيد بن ربيعة العامري : ٢٤٦.

(٦) سقط الزند : ١٠١.

فقد ضرب الشاعر مثلاً بالضرغام والنمل، اذ أنّ النمل لضعفهِ وعجزه يدّخر الطعام لسنتهِ، ولا نرى الأسد يدّخر قوت يومه مع قدرته وقوته على ذلك. ثم يقول[١] :

تحفظ منه خيفةً من رحليهِ وكَمْ مالُ مَلْك ضاع تحت خاتمهِ

فالشاعر يريد بيان احوال الناس في اموالهم، وذلك أنّ المال حيث كان يحتفظ ويتوثق منه مخافة ذهابهِ، ولا يُبذل في الحقوق، ولا يُنفق في سبيل المكارم، فيكسب صاحبه الذكر الجميل، بل يُدّخر و يُختم عليه فيضع تحت الختم من غير أن ينتفع به، يُذم صاحبه.

ولم تقتصر الفضائل التي تمسّك بها العربي على الكرم، بل أشاد بالنخوة، والإباء، والشجاعة، والمروءة، والسعي نحو المعالي، كقول ابي العلاء[٢].

ألا في سبيل المجد ما انا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

فالشاعر جمع العفة والشجاعة والحزم، والجود، وسلوك هذا الطريق هو المجد، أي أنّ، افعاله كلّها واقعة في سبيل المجد. وتستمر نفس الشاعر التوّاقة الى المعالي بهذا الاتجاه، حتّى أنّه يعد بغض الناس له وعّده مذنباً لا لشيء الا انّه رسم لنفسه هذا الطريق فيقول :

تُعدُّ ذنوبي عند قوم كثيرةً ولا ذنب لي إلا العُلى والفواضل

أي أنّ ذنوب الشاعر كثيرة عند مَن لا يناسبه حاله وذلك لقصوره ونقصه، ولا ذنب له إلا الفضائل وعلو الشأن. ويبقى الشاعر يطوف حول كل ما يمتاز بالعلو والرفعة اذ يقول :[٣][*]

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم باخفاء شمس ضوؤها متكامل

فالشاعر يرى حساده يجتهدون في ستر حاله، واخفاء امره وأنى لهم ذلك، وقد سار صيته في البلاد مسير الشمس، ومَنْ يضمن للحساد اخفاء شمس قد تكامل ضوؤها وشعاعها، فلا احد يضمن ذلك كونه غير ممكن، وكذلك اخفاء ذكره غير ممكن.

ونرى هذا السباق للمعالي عند ابي العلاء مبثوثا في اغلب شعره فدونك الابيات الآتية شاهداً آخر على مانقول.

وكم من طالب أمدي سيلقى دوين مكافي السبع الشدادا[٣]

وقوله[٤]

لي الشرف الذي يطأ الثريا مع الفضل الذي بهر العبادا

وقوله[٥]

ولي نفسٌ تحلّ بي الروابي وتأبى أن تحلّ بي الوهادا

فالشاعر يرى انّه بلغ من المعالي رتبةً، منّ طلبها وجاراه اليها لوجد السماوات السبع دونه من غير أن يبلغ مكانه، اذ أن الشاعر يرى انّه حصل على شرف أناف على محل الثريا، ووطئه باقدامه، مستعليا عليه مشفوعاً

---

(١) م.ن : ١٠٦.

(٢) سقط الزند: ١٩٣

(*) م.ن : ١٩٣

(٣) م.ن : ١٩٨.

(٤) م. ن ١٩٨.

(٥) م.ن: ٢٠٢

بالفضل الذي بهر الناس، وغلب القمر والنجوم على الرغم من كونهما باهران، فهمته تسمو به الى المعالي من الامور، ولا ترضى له بسفاسفها، وخساسها.

والإباء قيمة أخرى شغلت حيزاً من شعر ابي العلاء. اذ عدّه الشاعر من السجايا التي تقود إلى الذكر الحسن فهو يقول :[١]

والموت احسن بالنفس التي ألفت عزّ القناعة من أن تسأل القوتا

أي أنّ مَنْ آثر القناعة، وألف عزّها فالموت احسن به واسهل من أن يسأل مثله القوت، فالموت احسن بالنفس الأبية من السؤال.

ومن الفضائل الاخرى التي رأى فيها الشاعر بقاء المجد والخلود الإيثار، اذ يقول[٢].

ولو أنّي حُبيتُ الخُلد فرداً لما أحببتُ بالخلد أنفرادا

على الرغم من الهاجس الذي انتاب الانسان منذ القدم وهو البحث عن الخلود، فقد كرهه الشاعر اذا كان لا يعمّ الآخرين، اذ يرى انّه لو خُصص بالبقاء أبدا فرداً لم يرد الإفراد بدوام البقاء. ولا نغالي اذا رأينا أنّ هذا الخلود الذي ذكره الشاعر في البيت السابق هو خلود الأخرة، وبذلك يكون الشاعر قد دعا للناس بخلود الجنة.

ومن مواطن الايثار الاخرى في شعره قوله[٣]

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

وهذا تاكيد لما تقدم، فالمطر اذا لم يعم جميع الناس فلا سقا الشاعر، ولا نزل بارضه، اذا انّه يكره اختصاصه بالكرمة دون سائر الناس.

وتبقى للشجاعة والفروسية شأنها في شعر الشاعر، فهي فضيلة تغنّى بها العرب، وعشقوها ، وفضلوا الموت على الحياة الذليلة المهانة اذ يقول : —

انا اقدم الخلّان فارضَ نصيحتي إنّ الفضيلة للحسام الأقدم

واستزر بالبيض الحسان ولا يكن لك غير همّة صارم أو لهذم

فالشاعر يرى في التزام السيف سموّاً الى المعالي، اذ الفضيلة له. ونرى الشاعر في موضع آخر يفضل الشجاعة على العلم الذي اعتدنا على سماع افضليته عليها، او يكون موازيا لها. اذ يقول[٤]:

دعْ اليراع لقومٍ يفخرون به وبالطوال الرديْنيّات فأفتخر

أي دع العلم لمن يفخر به، وحسبك مايفخر به من الشجاعة والمجد.

وحسبنا أنّ الديوان مليء بالشواهد الكثيرة التي يحث الشاعر فيها على الشجاعة وتهوين الموت أمامها.

من كل ذلك نخلص الى أنّ الشاعر كسلفه رأى في الخصال الحميدة منفذاً للذكر الحسن ، والخلود المعنوي لذا نراه قد تغنى بها وبناها كحلم في شعره كي يعتبر بها الآخرون ليعلموا أن لا شيء في الدنيا يدوم سوى ما يتركه الانسان من فعل حسن.

---

(١) سقط الزند : ١٧٥.

(٢) م.ن : ١٩٨.

(٣) م.ن : ١٩٨.

(٤) م.ن : ٦٠

الخاتمة

بعد هذه الجولة في ديوان سقط الزند لأبي العلاء المعّري، والتحرّي عمّا كان يختلج في مكامن نفسه من خلال شعره من حتمية الفناء، وما جدوى بحثه عن الخلود، لابدَّ لنا من أن نجمل ذلك بنتائج عدة منها :

أ – أن الشاعر آمن إيماناً كاملاً بحتمية الموت.

ب– ايمان الشاعر بأن الله خالق، والاسلام دين الحق وان الحياة الحقيقية هي الدار الآخرة.

ج– مارس الشاعر المواجهة الواقعية للموت متجنباً المواجهة العبثية كونها لا تتلاءم ومبادئ الدين الحنيف.

د– لم يكن كالشعراء الجاهليين في بحثهم عن الخلود المادي والمعنوي. اذ انّه آمن بعدم جدوى البحث في الخلود المادي متجاهلاً الكثير من منافذ الخلود المعنوي التي كانوا يلجون من خلالها.

هـ– إدراك الشاعر أن الذكر الحسن بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى هي الباب الأوسع لخلود معنوي للانسان في الدارين الأولى و الآخرة.

المصادر

١–الإيمان والحياة. د.يوسف القرضاوي.دار غريب للطباعة –القاهرة – د.ت

٢–الخلود في التراث الثقافي المصري. سيد عويس. دار المعارف مصر. ١٩٦٦م

٣–دراسات نقدية في الشعر العربي.د. بهجت الحديثي. دار الشؤون الثقافية العامة.بغداد.١٩٩٢

٤–ديوان الحطيئة.تح. نعمان محمد طه. الخانجي. القاهرة.١٩٨٧م

٥ سقط الزند.أبو العلاء المعري.دار صادر. بيروت

٦–عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة. نائل حنون. مطبعة دار السلام. بغداد. ١٩٧٨م

٧ العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده. أبن رشيق القيرواني. تح. محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة. مصر.١٩٦٧م

٨ التكامل في اللغة والأدب. أبو العباس المبرد.تح. محمد أبو الفضل إبراهيم مع السيد شحاته. دار نهضة مصر.

٩–مروج الذهب ومعادن الجوهر. المسعودي. مطبعة السعادة. مصر. ١٩٥٦م.

١٠–مشاهد القيامة في القرآن الكريم. سيد قطب. دار الكتاب الإسلامي.

١١–معجم الشعراء. المرزباني. تح. عبد الستار احمد فراج. مطبعة الحلبي. القاهرة. ١٩٦٠م.

١٢–ملحمة كلكامش. طه باقر. دار الحرية للطباعة. بغداد. ١٩٧٥م.

١٣–هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي. د. عبد الرزاق خليفة محمود الدليمي. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد.٢٠٠١م.

أهميتها وحكمتها : (يأيها الناس أعبدو ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)[١] وقال سبحانه عن الصوم (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)[٢].

وقد قال سبحانه عن يوسف عليه السلام : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) وعلل ذلك سبحانه ب (انه من عبادنا المخلصين)[٣] دلالة على ان الله سبحانه يصرف عن كل عبد قانت مخبت له سبحانه السوء والمعاصي سنة من سبحانه في خلقه (ولن تجد لسنة الله تبديلا) [٤]ولذلك فانه ليس لابليس قدرة على اغواء العبادة المخلصين، قال سبحانه على لسانه : (قال رب بما اغويتني لازين لهم في الارض ولا غوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) [٥]، وقال : (قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) [٦].

ولاهمية العبادات جعل النبي عليه السلام الاسلام كله مبنيا على اعظمها وهي الصلاة والصيام والزكاة والحج بالاضافة الى شهادة التوحيد فقال : (بني الاسلام على خمس، شهادة ان لا اله الا الله وان محمد عبده ورسوله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان)[٧].

وهذه العبادات وغيرها لها دور بارز في تنمية ملكة التقوى عند العبد وفي حفظه من ارتكاب الشرور والاثام سواء اكانت متعلقه بحقوق الناس وهذا ما سأبينه بعون الله وتوفيقه – في الصفحات القادمة ان شاء الله تعالى وبالله تعالى التوفيق والسداد .

المبحث الثاني

الصلاة : اهميتها وحفظها للعبد من المعاصي

اولا : أهمية الصلاة

الصلاة هي ركن الاسلام الثاني والتي باقامتها اقامة للدين وبتركها او تضييعها ترك وتضييع للدين. فرضها الله على عباده السماء اعظامها لشانها. واوجبها على العباد في الصحة والمرض وفي السفر وفي الحضر والامن والخوف السلم والحرب فلا تسقط عن بحال الا اذا ذهب به يميز الانسان قال سبحانه : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين فان خفتم فرجالا او ركبانا فاذا امنتم فأذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون) [٨]وهي العهد الذي يربط صاحبها بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين فمن تركها فقد كفر او أشرك (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)[٩] وهي (اول مات يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فأن صلحت فقد أفلح وأنجح وأن فسدت فقد خاب وخسر)[١٠].

---

[١] البقرة / ٢١

[٢] البقرة/ ١٨٣.

[٣] فاطر / ٤٣

[٤] يوسف/ ٢٤.

[٥] الحجر/ ٣٩-٤٠.

[٦] ص / ٨٣.

[٧] رواه مسلم انظر :صحيح مسلم بشرح النووي، ج١،ص ١٧٧، باب بيان اركان الأسلام ودعائمه.

[٨] البقرة / ٢٣٨ -٢٣٩ .

[٩] رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح غريب . أنظر:عارضة الأحوذي ، جـ١٠،ص٤٠. كتاب الأيمان_ باب ما جاء في ترك الصلاة .

[١٠] رواه الترميذي وقال هذا حديث حسن صحيح غريب. انظر : عارضة الاحوذي، ج٢، ص٢٠٦ كتاب الايمان – ان اول مايحاسب العبد يوم القيامة.

الأرحام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.... والدعاء والقراءة وأمثال ذلك من العبادة) [١] وفي الواقع لا تناقض أو اختلاف بين التعريفين، ذلك ان التعريف الاول بين العبادة من جهة معينة وهي جوهر العبادة وماهيتها والتعريف الثاني نظر اليها من جهة اخرى وهي مسميات العبادة واشكالها، على ان هذا التعريف ادخل في العبادة اعمالا لا تدخل فيها بعناها الخاص وانما بمعنى العبادة العام الذي يشمل كل اعمال الانسان في الحياة سواء اكانت شعائر تعبدية ام غيرها على ما سنذكر ان شاء الله .

العبادة بمعنييها الخاص والعام

فالعبادة في القرآن لها معنيان : معنى عام ومعنى خاص وأما المعنى العام فهو المراد من العباد جميعا ان يؤدوه من افعال بنية خالصة لله سبحانه . لتكون حياتهم كلها طاعة لله عز وجل فهي (كل ما يصدر عن الانسان المسلم من أقوال وأفعال أحاسيس وكل ما يوجد منه من علم أو عمل أو استعداد فيه خير ومصلحة شرعية اذا نوى بذلك وجه الله عز وجل وكان متطابقا مع شرع الله عز وجل)[٢].

وهذا التعريف العام الشامل هو كتعريف ابن تيميه السابق (العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الاموال والاعمال الظاهرة والباطنة ...) فالكلمة الطيبة عبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة . وصلة الأرحام اماطة الأذى عن الطريق.

وصدق الحديث كل ذلك عبادة كالصلاة والصيام والزكاة والحج سواء اذا قصد بكل تلك الأعمال وجه الله تعالى ، ولذلك سبحانه (وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون)[٣] وقال سبحانه :(قل ان صلاتي ونسكي وحياتي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[٤].

ولا تكون حياة الأنسان لله رب العالمين ألا اذا قصد بأعماله كلها وجه الله عز وجل وقد ذكرت الآية العبادة بمفهومها الخاص وهي (صلاتي) و (نسكي). ذلك أنها بهذا المفهوم تعني (مجموعة الشعائر المحددة التي شرعها الأسلام بقصد التقرب الى الله سبحانه ولأظهار الخضوع له)[٥] وهذه الشعائر قد حدد لها الشرع سبحانه مواقيتها وأركانها وشروطها خاصة في كل منها لايزاد عليها ولا ينقص منها. فهي لا تقبل أي اجتهاد في شيء منها وأنما هو التسليم والطاعة فيها جميعها وأمثلة هذه العبادة الصلاة والصيام والزكاة والحج وتلاوة القرآن ، وذكر الله والدعاء والعمرة والأضحية ، والنذور وغير ذلك مما ذكر في القرآن والسنة.

أهمية هذه العبادات في حفظ العبد من المعاصي

أن هذه الشعائر التي أفترضها الله تعالى على المسلم من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها لها من الأبعاد الأثر في تقوية صلة الأنسان بخالقه فلا ينساه ولا يغفل عنه بدنياه وملذاته بل يأخذ من الدنيا بقدر ما يعينه وهمه الأكبر هو الدار الأخرة. أن هذه العبادات تنشيء في المحافظ والمداوع عليها سلوكا معينا والتي تحجز صاحبها عن محارم الله تعالى وتسارع به الى مرضاته . قال سبحانه في آخر الآية

---

[١] العبودية لابن تيمية، ص٣٨.

[٢] نظام الاسلام، محمد عقلة، ص ٣٩ .

[٣] الذاريات/ ٥٦ .

[٤] الانعام/ ١٦٢-١٦٣

[٥] انظر: نظام الاسلام، محمد عقلة، ص٣٨.